آل محتاج وأهميتهم التاريخية في خراسان وما وراء النهر

أ.د. قحطان عبد الستار الحديثي
كلية الآداب – جامعة بغداد

[١]

أن مجرى التاريخ في إقليم خراسان وما وراء النهر أن فتحه العرب المسلمون . كان يتأثر إلى حد كبير بالدور الذي يؤديه المؤرخون في تقديمهم النصوص التاريخية عن أحداث هذا الإقليم سياسية كانت أم حضارية.

ونحن عندما نستقرئ الدراسات المختلفة التي قدمت عن أحداث المشرق الإسلامي في مصادرنا الأولية . نجدها ذات أهمية بالغة في فهم التناقضات التاريخية بين البطل ودوره وتأثيره في صناعة التاريخ . وبين مجرى الأحداث العامة وقوتها في صياغة الرواية التاريخية .

أن هذا التفاعل المادي والروحي بين عناصر النصوص التاريخية وما ينطوي عليه من مبادئ أساسية عبر المراحل والأدوار يكشف لنا سر قوة الأمة وحيويتها وديمومتها في تأدية رسالتها الحضارية والإنسانية . وهكذا نجد من بين عناصر هذه القوة أولئك الرجال الذين أدّوا دوراً مهماً في تدوين الحدث التاريخي والتأثير فيه سلبياً أم إيجابياً . وكان آل محتاج من بين مصادر التأثير الذين تركوا في خراسان وما وراء النهر آثاراً غطت مساحة زمانية ومكانية ليست قليلة ولا يمكن تجاوزها .

وكان من الممكن لو توافر لدينا مصنف ((التاريخ في أخبار ولاة خراسان)) الذي ألفه باللغة العربية أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن

يحيى المخزومي السلامي (ت ٣٩٣ هـ/١٠٠٢م) الذي كان يعمل تحت أمرة أبي بكر محمد بن المظفر بن محتاج وأبنه أبي علي أحمد بن محمد . لكنا قد استفدنا منه الشيء الكثير من المعلومات الذي تحدث عنها هذا المؤرخ عن نشاط آل محتاج في خراسان وعلاقتهم بآل سامان . وكتاب السلامي كان بلا ريب هو المصدر الأساسي للمؤرخين الذي فصلوا القول في تاريخ المشرق الإسلامي . من أمثال كرديزي (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) في كتابه ((زين الأخبار)). وأبن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) في مدونته الكامل في التاريخ . ومن ثم أبن خلكان (ت ٦٨١/١٢٨٢م) في سفره القيم ((وفيات الأعيان)) الذي يعد من أشهر مؤرخي القرن التاسع للهجرة في تراجم الرجال وتواريخهم[١] ومن المعقول أن نشاط آل محتاج قد شغل حيزاً من اهتمام هؤلاء المؤرخين ونصوصهم التاريخية.

[٢]

أن المعلومات التاريخية عن أصل آل محتاج ونشأتهم الأولى يكتنفها بعض الغموض . فلم تتحدث المظان التاريخية عن هذه العائلة إلا بعذر ما يتعلق الأمر باتصالهم بأمراء الإمارة السامانية[٢] ولكن ثمة إشارة يذكرها ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) يقول فيها أن الصغانيان كانت معقل أبي علي بن محتاج[٣] . وهذا يدل على أنهم من أمراء الصغانيان الذين يقال لهم ((صغان خدات))[٤] إذ أن لفظة (خدات) تعني بالفارسية الأمير أو الحاكم[٥] .

آل محتاج[٦]

أصحاب الصغانيان (جفانيان)

محتاج

(ينتسب إلى صغان خدات)

المظفر

أبو بكر محمد (ت سنة ٣٢٩ هـ)

أبو العباس الفضل　　أبو علي أحمد (ت سنة ٣٤٤هـ)

أبو منصور عامل الصغانيان　　أبو المظفر عبد الله

سنة ٣٤٠ هـ　　(ت ٣٤٠ هـ)

والصغانيان : بفتح الصاد المهملة والغين المعجمة وبعد الألف نون ثم ياء مثناه من تحت وآخره نون . والعجم يبدلون الصاد جيماً فيقولون ((جفانيان)) والنسبة إليها : الصغاني[٧] .

تقع الصغانيان إلى غرب نهر وخش . ومن جنوبها يحدها نهر جيحون . والناحية تتصل بأرض ترمذ وفيها الجبال والسهول[٨] . قال اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) أن الصغانيان ((بلد جليل واسع قيد كور وعدة مدن))[٩] .

وعدّها قدامه (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م) من كور خراسان وعنده عظيمة كثيرة الأهل[١٠] .

وذكر الأصطخري (ت ٣٤١هـ/٩٥٢م) ((وجمعنا ما بين واشجرد والصغانيان إلى عمل الصغانيان)) وقد عدّها من كور ما وراء النهر[١١] .

وأشار المقدسي البشاري (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م) إلى أن الصغانيان ((ناحية شديدة العمارة))[١٢] .

وجعل السمعاني (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) الصغانيان بلاد مجتمعة وراء نهر جيحون . وهي كوره عظيمة واسعة كثيرة الماء والشجر والأهل وسوقها كبير ومسجدها حسن مشهور[١٣] .

وقال ياقوت هي ((ولاية عظيمة بما وراء النهر متصلة الأعمال بترمذ)) يخرج منها عشرة آلاف مقاتل بنفقاتهم ودوابهم إذا خرج على السلطان خارج. وهم أهل سنة وجماعة[١٤].

وقد ذكر البلدانيون العرب مدن الصغانيان وكورها : نودز و واشجرد وشومان ودارزنجي وباسند وبهام وريثور وبوراب وبكدشت وبانياب وهنباذ ودسنجرد وسنكرده والصغانيان القصبة وحردان ومهاران وكاسك[١٥] .

وقدم المقدس وصفاً طريفاً للمدينة حيث شبه القصبة بالرملة والناحية بفلسطين . ناحية شديدة العمارة كثيرة الخيرات مشاربهم من أنهار تمد إلى جيحون . فيها جبال وسهول . بها ستة عشر ألف قرية . وأسواق القصبة مغطاة . والجامع وسط السوق لطيف على سواري آجر بلا طبقان[١٦].

وفي القصبة قلعة . وفيها الثغر المبرك . وبعض مدنها ثغور في ما وراء النهر وبها الرباطات المشهورة والآثار العجيبة[١٧] ومن الصغانيان يرتفع الزعفران وبه مواضع الصيد ومعدن أجناس الطيور . كما تشتهر بالأنسجة القطنية والصدفية إذ تنسج البزاة الرفيعة القرطاسية والشهب والدرهمية المغرنقة . كما عرفت الصغانيان بالأوبار من السحور ، والسنجاب والثعالب . وكذلك في صناعة الطرائف من الحديد والنحاس[١٧] .

ويذكر البلاذري (٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) عن أبي عبد الرحمن الجعفي أن فتوحها كان على أيد الحكم بن عمرو الغفاري[١٩] ولكن ياقوت قال – ويقال – أن عبيد الله بن زياد فتح الصغانيان[٢٠] وينسب إليها أبو بكر محمد بن عبد الله الشوماني الصغاني ، وأبو بكر محمد بن إسحاق بن جعفر الصغاني نزيل بغداد .

أحد الثقات مات سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٣ م . وأبو العباس الفضل بن العباس بن يحيى بن الحسين الصغاني له تصانيف في كل فن وتصنيفه في الحديث أحسن منها[٢١] .

[٣]

أبو بكر محمد بن المظفر بن محتاج

ليست لدينا معلومات مفصلة عن النشأة الأولى لآل محتاج في الصغانيان. فالتاريخ المبكر لهذه العائلة لم يدونه المؤرخون الأوائل ولعل سببه ضمور دورهم التاريخي في هذه المرحلة من مطلع القرن الرابع للهجرة . ولكن ثمة إشارة أوردها كرديزي يذكر فيها ظهور أبو بكر محمد بن المظفر على مسرح الأحداث السياسية إذ كان من جملة القواد الذين أرسلهم الأمير أحمد بن إسماعيل (٢٩٥-٣٠١ هـ/٩٠٧-٩١٣م) حاكم الإمارة السامانية سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م للقضاء على بقايا الأمراء الصغاريين[٢٢] الذين كان لهم نفوذهم في ولاية سجستان معقل المعدل بن علي بن الليث الصغاري وصاحب جيشه أخيه أبي علي محمد بعد جيوش الخلافة آنذاك أخاهم الأكبر الليث سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م[٢٣] .

ومن خلال رواية كرديزي يتضح أن أبا بكر محمد بن المظفر قد وضع نفسه في خدمة الإمارة السامانية وأن مصيره قد ارتبط بمصير هذه العائلة الحاكمة في ما وراء النهر والتي تحظى بتأييد الخلافة العباسية ودعمها[٢٤] .

وفي سنة ٣١٨هـ/٩٣٠ م يظهر نشاط أبو بكر محمد بن المظفر السياسي والعسكري في أخماد التمرد الذي قام به أخوة الأمير نصر بن أحمد الساماني (ت ٣٣١هـ/٩٤٣م) وهم يحيى ومنصور وإبراهيم . وكان الأمير نصر قد حبسهم في قلعة بخارى قبل مغادرته إلى نيسابور في حين كان القائد الكبير أبو بكر محمد بن المظفر بن محتاج في ولاية جرجان . وهي إحدى

الولايات التابعة لحكام خراسان في نفس الوقت كان أبنه أبو علي أحمد بن محمد بن المظفر أميراً على الصغانيان[٢٥] .

وقامت المطاردات العسكرية عبر مدن خراسان وكورها بين القائد محمد بن المظفر والمتمردين مدة سنتين . حتى تمكن أبن المظفر من إحراز النصر لأميره نصر بن أحمد الساماني سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م[٢٦] .

أن الصراع العسكري الذي نشب بين أمراء الأسرة السامانية قد سبب صدعاً في الأحوال السياسية والإدارية في خراسان وما وراء النهر . كما أدى إلى أحداث فجوة كبيرة بين الحكام السامانيين وأمراء الأطراف وقادتهم . وفسح المجال أمامهم للخروج عن طاعتهم . والقيام بحركات تمرد وعصيان طوال سني حكمهم . وهذا ما حدث فعلاً في عام ٣٢١هـ/٩٣٣ م أيام مقام الأمير نصر بن أحمد الساماني في نيسابور لتنظيم أمورها وتقرير أوضاعها . فقد تمرد مرداويج بن زيار[٢٧] (ت ٣٢٣هـ/٩٣٤م) أحد قواد الإمارة السامانية وأنطلق من ولاية الري إلى جرجان الذي كان فيها آنذاك أبو بكر بن المظفر أميراً عليها قبل السامانية إذ تركها إلى نيسابور مقر أميره نصر الساماني[٢٨].

وإزاء هذه الأحداث التي وقعت في جرجان والولايات الغربية من إيران صمم الأمير نصر بن أحمد على استرداد ما فقده من نفوذ في تلك الولايات . فتمكن من استعادة إقليم جرجان إلى نفوذ السامانيين بمساعدة أبو بكر بن المظفر[٢٩] .

وبعد أن نظم الأمير نصر عمل جرجان وأحكمه إلى نيسابور حيث قلد ابا بكر محمد بن المظفر أمرة خراسان وجيوشها ((ورد إليه تدبير الأمور بنواحي خراسان جميعها)) . ثم عاد الأمير نصر إلى بخارى مقر عمله وكرسي ملكه[٣٠].

ويذكر أبن الأثير في أحداث سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م تسلم القائد محمد أبن المظفر رسالة أميره نصر الساماني بالتوجه إلى جرجان والري وانتزاعهما من

سيطرة وشمكير الذي خلف أخاه مرداويج بعد مقتله على يد غلمانه الأتراك عام ٣٢٣هـ/٩٣٤م . ولكن الجيوش التي أرسلت إلى هناك قد فشلت في تحقيق النصر للسامانيين بسبب تخاذلهم وعدم التعاون بينهم(٣١) .

ويبدو أن ذلك كان يشكل خيبة أمل لقائد جيوش خراسان محمد بن المظفر وقيادته العسكرية الحكيمة . كما أن هذه الأحداث قد شجعت بعض القواد والأمراء على التجرؤ في التمرد والعصيان على قيادتها العسكرية . وهذا ما حدث فعلاً عندما قام القائد . ما كان بن كاكي أحد قواد السامانية باسترداد ولاية جرجان سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م ولكن سرعان ما أعلن عصيانه على أمير خراسان محمد بن المظفر طمعاً في السيطرة والنفوذ(٣٢) .

ولعل تهاون محمد بن المظفر وعدم ضبطه لجيوش خراسان فضلاً عن مرضه قد سبب مشكلة سياسية وإدارية لبني سامان في تلك الأصقاع . مما أضطر الأمير نصر بن أحمد الساماني إلى عزله وتقيد أبنه أبا علي أحمد بن محمد بن المظفر على أمرة خراسان وجيوشها عام ٣٢٧هـ/٩٣٨م(٣٣).

وكان أبو علي أحمد وقتها أميراً على الصغانيان . فسار نحو نيسابور فألتقى مع أبيه على ثلاث مراحل من المدينة . فعرفه أبود ما يحتاج إلى معرفته. وبعدها سار أبو بكر محمد إلى بخارى مريضاً باستدعائه الأمير نصر الساماني(٣٤) .

وفي سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م توفي القائد أبو بكر محمد بن المظفر في مدينة بخارى ودفن بالصغانيان المدينة التي ولد فيها ونشأ . وكان له بها جذور الأصالة والنفوذ(٣٥) .

كان أبو بكر محمد بن المظفر من القواد العسكريين الذين قدموا خدمة كبيرة في تأكيد نفوذ الإمارة السامانية واستتباب الأمن والسيطرة على ممتلكاتها(٣٦) كما تصف المصادر التاريخية مقدرته العسكرية وقدرته الحربية

وشجاعته في الحروب وبلاءه في المعارك ووضع الخطط الكفيلة بإنجاحها[٣٧].
كما كان على درجة من الخلق العسكري والأدب الإداري وطاعة أمرائه من بني سامان[٣٨].

[٤]

أبو علي أحمد بن محمد بن المظفر بن محتاج.

دخل أبو علي مدينة نيسابور أميراً عليها خلفاً لأبيه في شهر رمضان سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨م[٣٩] . ويصف ابن الأثير أبا علي بالعقل والشجاعة والحزم في الأمور . فأقام في نيسابور ثلاثة أشهر يستعد للمسير إلى جرجان وطبرستان لانتزاعهما من سيطرة المتمردين[٤٠] . وأشار مسكويه (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م) إلى اتفاق القائد ما كان بن كاكي ووشمكير وتضافرهما على حرب السامانيين الذي يقود جيوشهم أبو علي أحمد . وكيف خلع ما كان طاعة الأمير نصر الساماني وأسقط خطبته في ولاية جرجان[٤١] وعند ذلك صمم أبن محتاج على التوجه إليه بجيش خراسان سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م فدخلها وهرب ما كان إلى طبرستان[٤٢] . ثم سار أبن محتاج من جرجان باتجاه الري فوصلها سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م لمناجزه وشمكير الذي استدعى ما كان لحرب جيش السامانيين الذي يقوده أبو علي بن محتاج[٤٣] ودارت المعركة بين الطرفين انتصر فيها أبن محتاج وقتل ما كان بن كاكي ، ودخلت جيوشه ولاية الري فأعيدت لها سلطة السامانيين بينما هرب وشمكير إلى طبرستان[٤٤] .

أقام أبو علي بن محتاج في الري وسير منها الجيوش إلى ولاية الجبل فاستولى على مدنها ورتب فيها العمال وجبى أموالها[٤٥] .

وصمم أبن محتاج على القضاء على وشمكير وعودة طبرستان إلى حظيرة النفوذ الساماني . محاصرها سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م ولكن سوء الأحوال الجوية وطبيعة المنطقة الجبلية أضطرد إلى عقد الصلح مع وشمكير على لزوم

الطاعة للسامانيين . وعندها رحل ابن محتاج إلى جرجان سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٢م. أتاه نبأ وفاة الأمير نصر الساماني في بخارى . فسار عنها إلى خراسان[٤٦] . لقد واجه بنو محتاج الأخطار السياسية والفكرية التي كانت تواجه الخلافة العباسية وحلفائها السامانيين . ووضعوا أنفسهم في خضم الصراع لكبح الاتجاهات الشعوبية التي كانت تريد النيل من الوجود العربي الإسلامي في إقليم خراسان والأقاليم التابعة لها[٤٧] .

كان السامانيون من أهل السنة ومن المتمسكين بمذهبهم كما كانوا يحكمون مقاطعات يعتنق أهلها مذهب أهل السنة ولاسيما مذهب أبي حنيفة[٤٨]. ولذلك تصدوا لحركات الزندقة والغلاة والدعوات التي لا تتفق وروح الإسلام[٤٩]. وهذا ما يفسر لنا سبب انخراط بني محتاج في خدمة السامانيين لاتفاق وجهة نظرهم السياسية والدينية معهم .

لقد استمر في زمن الأمير نوح بن نصر (ت ٣٤٣هـ/٩٥٤م) الصراع مع أعداء السامانين . وبذلك فقد وضعت على عاتق أبي علي أحمد بن محتاج مسؤولية المواجهة مع البويهين القوة الجديدة المتنامية[٥٠] . والقضاء على الأمراء المخالفين لسلطة السامانية واستتباب الأوضاع واستقرار الأمن في ربوع خراسان .

فلما وصلت الأخبار بحوث نصر بن أحمد إلى الولايات الغربية تمكن الحسن بن القيرزان[٥١] (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م) من احتلال جرجان والسيطرة عليها[٥٢] كما استطاع وشمكير النزوح من طبرستان إلى الري فملكها لخلوها من القوة السامانية[٥٣] إلا أن سيطرته لم تستمر طويلة إذ احتلها ركن الدولة البويهي (ت ٣٦٦هـ/٩٧٦م) وأخبر عماد الدولة (ت ٣٣٨هـ/٩٤٩م) أبناء بويه سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م . فالتجأ وشمكير إلى خراسان . ودخل في طاعة السامانيين[٥٤] .

كانت هذه الأوضاع القلقة مثار اهتمام الأمير نوح بن نصر فأتجه من بخارى إلى نيسابور سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م حيث بقي فيها خمسين يوماً يتفقد في رحلته هذه شؤون إمارته[٥٥] وأوعز الأمير نوح إلى قائد جيشه أبي علي بن محتاج يقصد الري . وأمره بجيش كبير . ولكن مهمته قد فشلت بسبب غدر العساكر الكردية في جيشه إذ استأمنت إلى ركن الدولة . وعاد أبن محتاج إلى نيسابور مهزوماً[٥٦] .

كانت هذه المعركة هو الأولى التي يصاب بها أبن محتاج بالفشل والهزيمة . ولعلها قد أثرت في نفسية الجند وأوضاع خراسان العامة . وربما كان ذلك مدعاة لقيام الناس بالشكوى والتذمر من سيرة أبن محتاج ونوابه للأمير نوح الذي أضطر إلى عزله عن أمرة خراسان وقيادة جيوشها وتوليتها للقائد إبراهيم أبن سيمجور الدواني (ت ٣٣٦هـ/٩٤٧م) . ثم عاد الأمير نوح إلى بخارى سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م[٥٧] .

ويبدو أن أبا علي بن محتاج قد استنكر هذا الأجراء وشق عليه لكنه في نفس الوقت بقي على طاعة أميره نوح الساماني . وعليه نراه يوجه أخاه أبا العباس الفضل بن محمد إلى ولاية الجبل وولاّه همذان ثم استولى على نهاوند والدينور وجعله خليفة على من معه من العسكر[٥٨] . كما نجح أحمد بن محتاج من إعادة اعتباره العسكري هذه المرة حيث تمكن من دخول الري بعد أن أجلى عنها ركن الدولة البويهي . وعندها أرسل أبو علي نوابه إلى تلك الأعمال[٥٩] .

وبعد أن استرجع آل محتاج نفوذ السامانيين وسلطتهم مرة أخرى فوق الولايات الغربية من خراسان . قام أبو علي أحمد بن محتاج بالتمرد ضد سلطة الأمير نوح بن نصر الساماني وأعلن عصيانه سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م[٦٠].

لقد أتت الأطماع الشخصية ودسائس الأمراء والقواد دوراً في قيام هذا التمرد . فقال الزشخي (ت ٣٤٨هـ/٩٥٩م) أن ذلك كان بسبب عزلة عن ولاية

خراسان . ثم أورد تعليق ابن محتاج بقوله : ((أنا مهدت لـه الملـك وأعطـى الولاية لآخر))[٦١] .

وأشار مسكويه إلى الدسائس التي عملها ركن الدولة البويهي مع نـوح بن نصر ليوقع بينه وبين أبن محتاج حول ولاية الري وعقد الصلح بين الأميرين بضمان الري عشر سنين مع مائة ألف دينار في كل سنة[٦٢] . وهذا يعنـي أن البويهيين أصحاب الاتجاهات الشعوبية كانوا يعرفون جيداً مدى الخطورة التـي كانت تكمن في آل محتاج وأخلاصهم للخلافة العباسية وتضحيتهم في سبيل تأكيد الوجود العربي الإسلامي فوق الأراضي الإيرانية .

ويضع كرديزي (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) سبب الخلاف على عاتق القائـد أحمد بن حمويه الذي ((صير أبا علي عاصياً وأوغر قلب حشمه)). وكان الوزير الساماني محمد بن أحمد الحاكم أراد التخلص منه .. فكانت النتيجة أنه قتل أبن حمويه وبعده الوزير بعد أن كشفت اللعبة واتضحت المؤامرة التي حيكت ضد أبن محتاج[٦٣] .

ومهما تكن الأسباب والدوافع فأن التمرد كان كما يبدو نتيجة الدسـائس التي تحاك يومذاك في قصور الأمراء والقواد والوزراء ليتخلص بعضـهم مـن البعض الآخر في تنافسهم على النفوذ والسلطة .

لقد حاول أبن محتاج أن يجد قوة سياسية يستند عليها لتبرير خروجـه وعصيانه . فراسل الأمير إبراهيم بن أحمد عم نوح بن نصر[٦٤] يخبره بأنه عقد له الرياسة وأخذ له البيعة على أصحابه على أن تكون له ولاية خراسان[٦٥].

ولما وصل إبراهيم بن أحمد الساماني إلى الري بعث كتبـاً إلـى ناصـر الدولة الحمداني (ت ٣٥٨هـ/٩٦٨م) ببغداد يخبره بأنه سـائر إلـى نيسـابور لمحاربه أبن أخيه نوح . فأنفذ إليه ناصر الدولة خلعاً سلطانيه ولواء عنده لـه عن الخليفة المطيع لله (ت ٣٦٤هـ/٩٤٥م)[٦٦] .

وهكذا يتضح أن أبا علي بن محتاج قد تمكن بذكائه وفطنته من سحب الخلافة العباسية إلى جانبه ليضيفها إلى قوته العسكرية لتبرير تمرده ضد الإمارة السامانية . ويبدو أن موقع الخلافة هذا قد أثر في مستقبل العلاقات السياسية والإدارية مع السامانيين . وسارت جيوش أبي علي بن محتاج إلى نيسابور فأصبحت في قبضة المتمردين[٦٧] . ثم اتجه ومعه إبراهيم صوب بخارى فدخلوها سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م وخطب له على منابرها . في حين هرب نوح إلى سمرقند[٦٨] وذكر مسكويه أن ابا علي بن محتاج كتب إلى عماد الدولة البويهي يبشره بما جرى ويسأله تجديد أمر السلطان لإبراهيم بن أحمد والعقد له على خراسان[٦٩] . لكن الأمور لم تستقر في بخارى لإبراهيم وقائده أبن محتاج حيث نشب الخلاف بينهم بسبب مطامعهم واستحكام الفتن والشغب بينهم . وما أبداه إبراهيم من الندم والتأسف لقيامه بهذا العمل . مع ما ظهر في جند أبي علي من فساد نياتهم له والتأييد لأميرهم نوح السامانى الذي استعاد قوته فتمكن من العودة إلى بخارى والقبض على عمه إبراهيم . في حين هرب أبو علي بن محتاج إلى الصغانيان[٧٠] .

وحينما استتب الأمر لنوح بن نصر وعودته إلى دار ملكه ببخارى . أسند أمرة خراسان إلى قائده منصور بن فراتكين[٧١] .

وواجه أبو علي بن محتاج الذي أقام بالصغانيان قوات الأمير نوح الذي صمم على تصفية صراعه معه . فاستمرت المطاردات العسكرية عبر مدن خراسان مدة طويلة حتى انتهى الأمر بينهما إلى الصلح في عام ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م[٧٢] .

وفي تلك الاتفاق توفي قائد السامانية منصور بن فراتكين في مدينة الري بعد أن استتب له الأمر في خراسان سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م . فعادت العساكر الخراسانية إلى نيسابور . وعندها أضطر الأمير نوح إلى إعادة تعيين أبي علي

أحمد بن محتاج إلى قيادة جيوش خراسان . فقام بتنظيم أعمال الولاية بعد قدومه إليها[٧٣] . وقرر الأمير نوح محاربة ركن الدولة البويهي وتصفية نفوذه فأمر قائده أبا علي بن محتاج بالتوجه إلى الري سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م واجتمع معه وشمكير أيضاً . ولكن الظروف المناخية وملل الجند الخراسانية من القتال والحصار ونفاذ صبرهم حالت دون تحقيق الحملة غرضها المنشود فأضطر أبن محتاج إلى عقد الصلح على أن يتقرر لركن الدولة مئتي ألف دينار بدفعها للحكام السامانين سنوياً . وعندها عادت الجيوش الخراسانية إلى نيسابور[٧٤]. أن هذا الاتفاق لم يحقق رغبة وهدف وشمكير في السيطرة والنفوذ فبادر للإيقاع بين فائدة أبن محتاج والأمير نوح الذي أستسلم لمؤامرة وشمكير في عزلة وتعين أبا سعيد بكر بن مالك القرغاني (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م) على أمرة خراسان[٧٥] .

وعبثاً حاول أبو علي بن محتاج تبرير موقفه لدى أميره . مما أضطره إلى إظهار عصيانه سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م وخطب لنفسه في نيسابور[٧٦] .

ويظهر أن نوحاً كان يعرف مدى خطورة أبن محتاج وقوته العسكرية فكتب إلى وشمكير والحسن بن القيرزان بأمرهما بالصلح ومحاربه من يتمرد على السامانيين . ففعلا ذلك[٧٧] وعندها أدرك أبن محتاج حراجه مواقفه فدخل في اتفاق سياسي مع ركن الدولة البويهي بالرغم من اختلافهما في الوجهة الدينية[٧٨] .

ويبدو أن أبا علي بن محتاج لم يجد مبرراً لعزله . لأنه لم يسيء إلى الإمارة السامانية بهذا الصلح . وتأكيداً لوجهة نظرة الصائبة تراد يبعث بمجموعة من أعيان نيسابور إلى الأمر نوح يوضحون له موقفه ووجهة نظره. ويسأله إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه . إلا أن بعثة الوساطة هذه لم تحقق هدفها المطلوب[٧٩] .

ولعل ابن محتاج كان يعرف مدى الحقد الذي يكنه الأمير نوح نحوه وربما سوف لن يبقيه على حياته . مما اضطره إلى إعلان عصيانه والدخول مرغماً في طاعة البويهيين . لأنه لا يمكن له المقام في نيسابور أو الرجوع إلى الصغانيان[٨٠] .

ويعلق مسكويه على مكاتبه أبي علي لركن الدولة ((بعد أن أصابه في نفسه وأسبابه مكارة عظيمة أزالت ثقته بصاحبه . وثقة صاحبه به))[٨١] . وتمكن أبو علي بن محتاج من الحصول على مرسوم يقضي بتوليته على أمرة خراسان . إذ تكفل ركن الدولة بإصدار هذا العهد لأبي علي من أخيه مقر الدولة ببغداد[٨٢] . وعلى أثر ذلك سار أبو علي إلى نيسابور وأستولى عليها وخطب للخليفة المطيع بها ((إذ لم يكن خطب له إلى هذه الغاية في شيء من بلدان خراسان))[٨٣] .

وفي أثناء ذلك توفي الأمير نوح سنة ٣٤٣ هـ/٩٥٤م وتولى أبنه عبد الملك أمرة السامانية (ت ٣٥٠هـ/٩٦١م) فأرسل جيشاً بقيادة بكر بن مالك الذي تمكن من هزيمة أبن محتاج إلى الري وعودة أمرة خراسان للسلطة السامانية[٨٤] .

وفي تلك الأثناء كانت الخلافة العباسية مهيأة للدخول بين الأطراف المتنازعة لعقد الصلح بين السامانين والبويهيين . ولكن السفارة لم تحقق غرضها المنشود[٨٥] . فعاد الصراع التقليدي بين الطرفين واستؤنفت الحروب بينهما ولم تتوقف إلا بوفاة أبو علي أحمد بن محتاج في مدينة الري عام ٣٤٤هـ/٩٥٥م[٨٦] .

وبوفاته حقنت الدماء وارتفعت العداوات واستقامت شؤون خراسان[٨٧].

ويذكر كرديزي أن جثمانه قد حمل إلى الصغانيان موطنه الأصلي حيث دفن فيها[٨٨].

وبوفاة أبي علي انقطعت أخبار آل محتاج من المسرح السياسي في خراسان . ولم نعد نسمع أو نقرأ لهم أية أنباء بعد ذلك لقد قام آل محتاج بجهود كبيرة ومساعي عظيمة للإمارة السامانية لمدة طويلة من الزمن . وساهموا في إخماد العديد من حركات التمرد والعصيان وساعدوا على بسط نفوذ الخلافة العباسية وهيمنة سلطتها فوق الأراضي الإيرانية . وأعلنوا الحرب ضد كل الحركات والتكتلات الشعوبية والأفكار الهدافة ومبادئ الغلو والزندقة . فكانوا بذلك الأداة المخلصة والفعالة في إقرار السلام والأمن في ربوع إيران[٨٩] .

الهوامش :

١. أنظر : أبن فندق – تاريخ بيهق ص٢١ ، أبن خلكان – وفيات الأعيان ٣٥/٤ ، السخاوي – الأعلان بالتوبيخ ص٢٦٢ . وأنظر : بارنولد – تركستان ص٧٢ .

٢. الإمارة السامانية نسبه إلى جدهم الأعلى سامان خداة وهم الذين أسسوا إمارتهم في ما وراء النهر منذ سنة ٢٠٤هـ . أنظر في ذلك الحديثي – خراسان في العهد السامانى ص٣٢ وما بعدها .

٣. معجم البلدان ٣٩٣/٣ .

٤. زامباور – معجم الأنساب ص٣١٠ .

٥. أبن خرداذبه – المسالك والممالك ص٤٠ ، الترشخي – تاريخ بخارى ٨٧.

٦. زامباور – معجم الأنساب ص٧٥ ، ٣١٠ .

٧. السمعاني – الأنساب ٥٤٢/٣ ، ياقوت – البلدان ٣٩٣/٣ .

٨. الأصطخري – مسالك الممالك ص٢٩٦ ، لسترنج – بلدان الخلافة ٤٨٢ .

٩. البلدان ص٢٩٢ .

١٠. الخراج ص٢١١ ، ٢٤٣.

١١. مسالك الممالك ، ص٢٩٥ .

١٢. أحسن التقاسيم ، ص٢٨٣ .

١٣. الأنساب ٥٤٢/٣ . وأنظر عن جغرافية الصغانيان وأحوالها العامة الحديثي – أرباع خراسان ص٤٣٧ . وما بعدها .

١٤. معجم البلدان ٣٩٣/٣ .

١٥. اليعقوبي – البلدان ص ٢٩٢ ، الأصطخري – مسالك الممالك ، ص٢٩٥، ٢٩٨، المقدسي – أحسن التقاسيم ص٢٦٨ ، ٢٨٣-٢٨٤ .

١٦. أحسن التقاسيم ص٢٨٣ .

١٧. الأصطخري – مسالك الممالك ص٢٩٨ ، المقدسي – أحسن التقاسيم ص٢٨٣ ، السمعاني – الأنساب ٢٧١/٥ ، ١٧٥/٨ ، ٢١٨/٩ .

١٨. الأصطخري – مسالك الممالك ص٢٨٣ ، ياقوت – البلدان ٣٩٣/٣.

١٩. فتوح البلدان ، ص٥٠٦ .

٢٠. معجم البلدان ، ٥٢٠/١.

٢١. ن.م ٣٣٧/٣ ، ٣٩٣ .

٢٢. كرديزي – زين الأخبار ، ص٢٥ . والصقاريه نسبه على مؤسسها يعقوب بن الليث الصفار والتي سقطت إمارته سنة ٢٨٧هـ . أنظر : الحديثي . يعقوب بن الليث مجلة كلية الآداب البصرة العدد ٨ سنة ١٩٧٢ .

٢٣. أبن الأثير – الكامل ٦٠/٨ ، أبن خلدون – التاريخ ٧٠٦/٤ ، تاريخ سستان ص٢٩٠ .

٢٤. الزشخي – تاريخ بخارى ص ١٢٢ ، كرديزي – زين الأخبار ص٢١ .

٢٥. أبن الأثير – الكامل ٢٠٨/٨-٢١٠ الحديثي – خراسان ص٨٣-٨٤ .

٢٦. الزشخي – تاريخ بخارى ص ١٢٧ ، كرديزي – زين الأخبار ص٣١ ، أبن الأثير – الكامل ٢٠٨/٨-٢٠٩ .

٢٧. وكان مرداويج أحد اتباع أسفار بن شيرويه أحد قواد السامانية فتمرد على قائده وقتله سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م وبعدها أسس الإمارة الزيارية على أنقاض الإمارة العلوية في طبرستان وجرجان وقزوين والري . أنظر : الحديثي – خراسان ص٨٨-٨٩ .

٢٨. أبن الأثير – الكامل ٢٦٣/٨ . ويؤكد أن أبن محتاج كان مريضاً .

٢٩. ن.م

٣٠. مسكويه – تجارب الأمم ٢٧٦/١ . كرديزي – زين الأخبار ص٣٣ ، أبن الأثير – الكامل ٢٦٤/٨ .

٣١. ن.م ٣٠٤/٨ .

٣٢. ن.م ٣٢٦/٨-٣٢٧ .

٣٣. كرديزي – زين الأخبار ص٣٣ ، أبن الأثير – الكامل ٣٥٦/٨ .

٣٤. أبن الأثير – الكامل ٣٥٦/٨ .

٣٥. ن.م ٣٧٨/٨ .

٣٦. كرديزي – زين الأخبار ص٢٥ ، أبن الأثير – الكامل ٦٠/٨ .

٣٧. الزشخي – تاريخ بخارى ص١٢٧ ، كرديزي – زين الأخبار ص٣١-٣٢.

٣٨. أبن الأثير – الكامل ٢٦٤/٨ .

٣٩. ن.م ٣٥٦/٨ .

٤٠. ن.م .

٤١. تجارب الأمم ٤/٢ . وقد أعلن اسفار بن شيرويه ومرداويج وشمكير وما ان اتجاهاتهم الشعوبية وأهدافهم العنصرية وأفكارهم المجوسية ضد الخلافة العباسية والسامانية . الحديثي – خراسان ص٨٨ وما بعدها.

٤٢. مسكويه – تجارب الأمم ٤٠/٢ . كرديزي – زين الأخبار ص٣٣ ، الهمداني – التكملة ١١٩/١ ، أبن الأثير – الكامل ٣٥٩/٨ .

٤٣. ن.م .

٤٤. مسكويه – تجارب الأمم ٥/٢ ، الهمداني – التكملة ١٢٠/١، أبن الأثير الكامل ٣٧٠/٨ ، ٣٨٨ .

٤٥. أبن الأثير – الكامل ٣٨٩/٨ .

٤٦. مسكويه – تجارب الأمم ٧/٢ ، كرديزي – زين الأخبار ص٣٤ .

٤٧. المسعودي – المروج ٣٧٤/٤ ، أبن الأثير – الكامل ٣٩٢/٨ .

٤٨. المقدسي – أحسن التقاسيم ص٣٣٩ ، البيهقي – التاريخ ص٢١٣.

٤٩. أبن النديم – الفهرست ص١٨٨ ، نظام الملك – سياسة تامة ص٢٢٢، أبن الأثير – الكامل ١٢٦/٨-١٢٨ .

٥٠. وهم أبو الحسن علي (عماد الدولة) وأبو علي الحسن (ركن الدولة) وأبو الحسين أحمد (معز الدولة) أولاد أبي شجاع بويه أنظر ترجمتهم مسكويه – تجارب الأمم ٢٧٥/١ ، أبن الأثير – الكامل ٤٦٤/٨ .

٥١. هو عم ما كان بن كاكي وكان في بادئ الأمر في طاعة السامايتين . أنظر: مسكويه – تجارب الأمم ٧/٢-٨ ، أبن الأثير – الكامل ٤٤٢/٨.

٥٢. مسكويه – تجارب الأمم ٧/٢-٨ .

٥٣. ن.م .

٥٤. ن.م وأنظر : خواندمير – حبيب السير ٣٦٠/٢ .

٥٥. كرديزي – زين الأخبار ص٣٥ ، أبن الأثير – الكامل ٤٤٤/٨ .

٥٦. أبن الأثير – الكامل ٤٤٣/٨ كما يذكر مخالفة مقصور بن فرانكلين وهو من أكابر أصحاب نوح ومحاولته للسيطرة على جرجان وفشله خواندمير – حبيب السير ٣٦٠/٢ .

٥٧. الزشخي – تاريخ بخارى ص١٢٩ ، كرديزي – زين الأخبار ص٣٦.

٥٨. ن.م .

٥٩. أبن الأثير – الكامل ٤٤٣/٨-٤٤٤ . حسن – تاريخ الإسلام ٧/٣ .

٦٠. الزشخي – تاريخ بخارى ص١٢٩ ، مسكويه – تجارب الأمم ١٠٠/٢ .

٦١. تاريخ بخارى ص١٢٩ .

٦٢. تجارب الأمم ١٠٠/٢ .

٦٣. زين الأخبار ص٣٦ . وأنظر : ميرخوند – روضة الصفا ١٥/٤ .

٦٤. لقد هرب إبراهيم بن أحمد إلى الموصل في فتنة أخوه نصر بن أحمد سنة ٣١٣هـ . وصار أحد قواد ناصر الدولة الحمداني – كرديزي – زين الأخبار ص٣٢ .

٦٥. الزشخي – تاريخ بخارى ص١٢٩ ، مسكويه – تجارب الأمم ١٠١/٢ ، أبن الأثير – الكامل ٤٥٩/٨ . ميرخوند – روضة الصفا ١٥/٤ .

٦٦. مسكويه – تجارب الأمم ١٠٢/٢ . ناصر الدولة هو الحسن بن عبد الله بن حمدان . أنظر الحديثي – خراسان ص١٠٠ .

٦٧. وكان في نيسابور آنذاك إبراهيم بن سيمجور ومنصور بن فراتكلين مسكون – تجارب الأمم ١٠٢/٢ ، أبن الأثير – الكامل ٤٥٩/٨ .

٦٨. الزشخي – تاريخ بخارى ص ١٢٩ ، كرديزي – زين الأخبار ص٣٧ ، أبن الأثير – الكامل ٤٦٠/٨ وأنظر : دائرة المعارف الإسلامية م٤٥٣/١.

٦٩. تجارب الأمم ١٠٢/٢ . وأنظر الحديثي – خراسان ص١٠٠ .

٧٠. الزشخي – تاريخ بخارى ص١٢٩ ، مسكويه – تجارب الأمم ١٠٣/٢، كرديزي – زين الأخبار ص٣٧ ، أبن الأثير – الكامل ٤٦٠/٨ .

٧١. ن.م .

٧٢. كرديزي – زين الأخبار ص٣٨-٤٠ ، أبن الأثير – الكامل ٤٦٢/٨.

٧٣. كرديزي – زين الأخبار ص٤١ ، مسكويه – تجارب الأمم ١٤٣/٢ .

٧٤. مسكويه – تجارب الأمم ١٥٤/٢ ، كرديزي – زين الأخبار ص٤١ ، أبن الأثير – الكامل ٥٠٤/٨ .

٧٥. ن.م ودائرة المعارف الإسلامية م٤٥٣/١-٤٥٤.

٧٦. كرديزي – زين الأخبار ص٤٢ ، أبن الأثير – الكامل ٥٠٥/٨ .

٧٧. وكان الحسن في طاعة بني بويه . كما أن ركن الدولة استطاع السيطرة على طبرستان وهزيمه وشمكير إلى اسفرابين . أبن الأثير – الكامل ٥٠٥/٨ .

٧٨. مسكويه – تجارب الأمم ١٥٥/٢ ، أبن الأثير – الكامل ٥٠٥/٨ .

٧٩. كرديزي – زين الأخبار ص٤٢ .

٨٠. أبن الأثير – الكامل ٥٠٥/٨ .